خيط من النور

بقلم : محمود البدوى

فتح عينيه فلقى الظلام يخيم على الغرفة فاصابه ما يشبه الدعر .. اذ كان يود ان يغادر القاهرة فى قطار الساعة السادسة الى الاسكندرية ليكون بمنجوة عن كل مطارده ويختفى عن العيون .

وكان النوم قد غلبه وهو جالس على السرير لارهاقه الشديد وشعوره المحسم بالحادث الذى نجا له .. مروعا حتى زلزل خواطره وسد كل المنافذ فى وجهه .. فهرب من الواقع المروع بحسمه ونفسه واستغرق فى النوم .

وعجب سوفى لكونه ينام فى هذه الساعة العصيبة ولكل اعصابه المرهقة طوال الأيام الماضية كانت فى حاجة فى الواقع الى هذا الاسترخاء الطويل وافاده النوم فعلا .. وفتح عينيه وهو يحس بانه صلب وانه قادر على مجابهة الأمر بعد أن كان قد انهار كلية فى النهار وكاد أن يسلم نفسه .

وكانت الغرفة سابحة فى الظلام . ولكن نافذتها الوحيدة المطلة على الشارع الخلفى كانت بمثابة حلقة اتصال بالعالم الخارجى .. فحدق فى العمارة المواجهة .. وكان بياضها قد صرب الى السمرة من فعل الزمن واستقر بصره على شرفاتها ونوافذها وكان بعضها مضاء من خلال الشيش المشرع .. وبدا الزجاج يلتمع من سقوط المطر واحس بالرغبة فى أن ينهض من الفراش ليشاهد مقدار البلل الذى اصاب الشارع وتعرف حالة المطر هل كان رذاذا او سيلا منهمرا .. ولكن الضعف والخمول ولزومه الفراش منعته من الحركة واحس بالعرق الغزير يبلل الفراش مع انه خلع سترته قبل أن ينام ورأى أن يبقى بالقميص والبنطلون ليكون على استعداد تام لكل الطوارىء .. ورغم كل الخوف زاد من افرازات العرق كما أنه دفع الغطاء وكوره فوق رأسه وهو نائم وكأنه يحتمى به من كل ما يأتى به القدر !

وحرك البطانية جالسا .. واصطجع وقد جعل رأسه ناحية الباب بعد أن أحس بحركة النزلاء في « النسيون » .. وكانوا قد تجمعوا في الحجرة الخلفية ليلعبوا القمار كعادتهم وسمع صوت مدام سوران صاحبة البنسيون وضحكاتها ثم صوت ابراهيم أفندي .. وكان أكثر النزلاء .. تحمسا للعب . وهو الذي يجمع رفاقه على المائدة من الساعة التاسعة ليلا ويظلون في لعب القمار الى الصباح .

وكان ارمل ومنذ ماتت زوجته وهو يعيش في البنسيونات والفنادق مضطربا في معيشته ويبدو تاعسا وحيدا جالسا بالفراش القاتل .

وكانت « سوران » صاحبة البنسيون تشاركهم في اللعب أحيانا ومعها سيدة شابة من شقة مجاورة في نفس العمارة وذلك في الحالات التي يحمى فيها وطيس اللعب .. وتكون متأكدة من احراج مبلغ مناسب للمائدة التي يلعبون عليها .. وكان يقر في حسبانها دوما ان في مائدة القمار واحسان اللواتي يجلس حولها اغراء للنزلاء على البقاء « بالبنسيون » .. والتعلق به وعدم تركه الى غيره .. والبنسيونات والغرف المفروشة في القاهرة كثيرة جدا .

ولخبرتها بالرجال ولباقتها لم تلح على « شوقي » في أن يلعب القمار مع النزلاء لما وجدت أنه لا يحب ممارسة هذه اللعبة .

كما انها لم تقصر في الصلاة له في بيتها بسبب انه يدفع أقل النزلاء أجرا بل كانت تعنى بفراشه ونظافة غرفته كأي نزيل آخر يدفع ضعف أجره .

وكانت تحنو عليه وتنزله من نفسها منزلة خاصة لشبابه وصباحة وجهه .. اذ كان هو الشاب الوحيد وبقية النزلاء من المعاشر .

كما كان هو الوحيد الموظف في الحكومة ويدفع لها أجر الغرفة بانتظام .. واكثرهم استقرارا اذ مضى عليه في بيتها أكثر من سنة وغيره من النزلاء كالقومسيونجيه والعابرين لا يمكثون أكثر من شهرين أو ثلاثة ، وكانوا يتصعبونها لكثرة ثقلهم .ولأنهم يدفعون شهرا ويؤجلون الدفع أشهرا ..

وكانت مستريحة « لشوقي » راضية عنه لأنه هادىء الطباع قليل الزوار قليل المطالب ،وكانت قد بصرت به في هذه الليلة ،وهو مستغرق في النوم من وقت الظهر على غير عادة ففتحت عليه الباب برفق وهو نائم ثم ردته لما رأت استغراقه وأدركت أنه منعب فتركته ليستريح .

ولما فتح « شوقي » عينيه كان صوتها هو أول صوت وصل الى سمعه .. فبقي في مكانه يحدق في الظلام .. فوجد سترته ملقاة كما اتفق وبعض الكتب على الطاولة وبجوارها دورق وكوب والمائدة مشرعة .. ولاحظ في البيت المقابل حركة ليلة الأحد .. اذ كانت معظم الشقق مضاءة وكانت العمارة

عالية حتى حجبت عنه نجوم السماء وهو في مكانه على الفراش .

ولما نهض من السرير وجلس مستريحا على الكرسي تحت النافذة مباشرة رأى حالما من السماء والنجوم تطاردها السحب واصغى الى اصوات العمارة المقابلة وتحرك سكانها .. ودار في خاطره ان المطر قد انقطع منذ ساعة واحدة وان الليلة شديدة البرودة .. والسماء أخذت تدكنها السحب السوداء .

وشعر انه اصبح حالا يجلوسه على الكرسي .. وارتدى سترته على عجل فشعر بالبرد .. وزايله بعض الاحساس بالقلق .

وكانت في رأسه صورة « عفاف » وهي زوجة رجل كبير مقامر يقيم في نفس البنسيون .. وكانت تلاحقه برعماتها المكبوتة وهو يصدها برفق .. وخشي لو دخلت عليه الغرفة في هذه الساعة أن يضعف ويستجيب لرعماتها .

وفتح عينيه جيدا .. وظل يحدق في الباب بقوة والأفكار تعصف برأسه وتقوده الى الشرود .. كان يتعذب .

واحس بحاجته الى ان يذهب الى دورة المياه .. فخلع سترته .. ومشى الى الباب دون ان يضيء المصباح .

وشعر بالبرد في الغرفة .. وبحركة النزلاء الساهرين على مائدة القمار .. ولمح قبل أن يدفع باب الحمام .. « روحية » نائمة في المطبخ وكانت متكورة على البلاط ومعرية فخذيها وترتعش من البرد .. فشعر بالأسف لحالها .

وأسرعت بعضات قلبه وهي تنظر عليها .. ان هذه الفتاة معه في نفس البنسيون منذ سنة وأكثر وهي أجمل من وقعت عليه عيناه في كل النساء في داخل البنسيون وما يجاوره من البيوت .. وقد أشفق عليها لما رآها مهضومة الحق وسيدتها لاتعاملها بانسانية ولا تترفق بها .

***

ودخل الحمام .. واخذ يغتسل وهو يحس ببرودة الماء على أصابعه ووجهه ولكنه أحس بأنه افاق وذهب عنه الشرود .

وتولد عنده احساس قوي .. لان يرى الشارع يرى الدنيا في الخارج وماذا حدث لها وجرى فيها .. فأطل من نافذة الحمام الصغيرة بعد ان أغلق مفتاح النور .

كان الليل شاحبا .. وكان الشارع يمج بالسيارات تحت المطر .. ولم يكن بين المارة ولا في الحركة المتصلة توقف ولا ادنى احساس لما حدث .

فخمن ان العسكري الانجليزي لم يصب من القنبلة وانها ذهبت هباء .. ولم تحدث أثرا يذكر .. واخذ يستعيد في ذهنه الصورة بكل دقائقها وتفاصيلها وأدهشه ان يستعيد كل شيء رغم مافي ذلك من الم .

وسمع وهو راجع الى غرفته ابريقا يثر على النار في المطبخ .. فأدرك ان ريله قد عاد لنصبها الشاي .

ولما جلس على سريره بعد ان اغلق الباب بالمفتاح .. تلاشى شعوره بالاستقرار .. واخذ يحدق في الظلام

.. وفي الشارع المطل على الشارع وعلى الجانب المقابل .. أحدث انوار الحمراء تحف .. وبعض الطلام كل واجهات البيوت ..

.. ولعلت عبده كراهية للسياسة ولعنها ولعن الساعة التي اضطر فيها الى الحرب .. ولعن كل الأحزاب الموجودة وسامه أكثر انه اشترك مع اثنين آخرين في الغاء القضية وكان قد سمع ان احدهما قبض عليه في مكان الحادث وقد يعترف .. ويذكر اسمه .. وانهم الآن يبحثون عنه ويرتعدان خوفه ..

كانت أعصابه قد تفككت .. ثم عادت وتماسكت مؤكدة عنده احساس مدمر بالملل والتعاسة المرة ..

كان كل ما يحسه هو مريح من الخاصه

من الهموم او الاسترخاء او الحاجة الى يدفن رأسه في صدر امرأة ويطلق توتر اعصابه .

وأحس بالظلام يلف وحدته ومشاعره وكل احساسيس نفسه . وعمره احساس بان السياسة عبث والحياة عبث ووجوده كله عبث .

احس بانه يرى قوة أكبر منه أتيه لتحطيمه آتية لسحقه — ولا قبل له بردها ولا وقفها .

كان مضطجعا يحدق في الظلام وهو عابس الوجه ويحاول ان يحلل الخوف ويحلل مشاعر نفسه .

ورجع في تلك اللحظة يفكر في الفتاة السكندية « روجية » التي تعمل خادمة عند سيدة مصرية متزوجة وكانت السيدة تتخذ من البسيون بيتا تطبخ وتعمل فيه كل شيء كانها في بيتها الخاص فعاملت هذه الفتاة معها ولكنها لم تعاملها برفق وكان شوقي يشعر نحو الفتاة بعاطفة انسانية دافقة . ويتالم لحالها وهو يراها نائمة في المطبخ على البلاط في ليالي الشتاء وفوقها غطاء خفيف وتحتها شيء اشبه بالحصير لاتقيها شر الرطوبة ولا رعشة البرد في الفجر المبكر .

وعلى توالي الأيام تحولت الشفقة الى حب — وحب متمكن من شغاف القلب وكانت الفتاة تراه وحده في الغرفة لايختلط بسكان البسيون ولا يزور احدا ولا يزار . فاسست لوحدته — وكانت تحمل له دورق الماء وكوب الشاي واذا رآه يغسل شرابا او منديلا في طشت نحاسي صغير اسرعت بسرعة وخفة وشمرته وهي تنظر حواليها خوفا من ان تراها سيدتها فتؤنبها على هذا العمل وربما تشتمها وتسمعها الكلام الموجع .

وكان شوقي اذا عاد من عمله ولم يرها أو يسمع حسها في داخل البسيون يحس بالوحشة وبالاشتياق حتى تعود من الخارج . واول شيء تفعله وهي راجعة هو المرور على بابه لتتاكد من وجوده فاذا وجدته اشرق وجهها وفاض السرور على محياها حينئذ وانصرفت مسرعة الى عملها .. وكانت لهفتها واشتياقها الى لقائه اضعاف لهفته واشتياقه .

وفي الساعة التي يذهب فيها سيدها بصحبة سيدتها الى السينما او الى مشوار في الخارج .. كانت تمضي الوقت كله .. في غرفة « شوقي » ويحسان في هذه العزلة الحبيبة بالامتزاج والنشوة والحب .

واحس بانه شغل عنها في ايامه الاخيرة بالحادث السياسي فلما فرغ منه وقرر الهروب الى الاسكندرية احتفل بها وحدثها برحلته في احدها معه .

وسألته برقة واستغراب

— أروح معك اسكندرية ؟!

— نعم

— اراك ؟

— سنعيش سويا .

— لكن أنا خدامة .. باسيدي ؟!

— لا أحب سماع هذه الكلمة .. ولا تقوليها لي أبدا .

— امال أقولك ايه ؟

ـ شوقي .

ـ شوقي بس .. ؟

ـ بس .

ـ لكن انت سيدى ؟

ـ لا تقول هذا الكلام .. ولا يوجد اسياد وعبيد فى العالم .. الله خلق الناس سواء فى هذه الدنيا ولكنا نحن الذين نفرق بينهم .. ونجعلهم طبقات بحماقتنا وغرورنا الانسان عندمايتحرر .. يطغى .. ولا يقف طغيانه عند حد .. كما يطغى الانجليز الآن . ويحاولون ان يستعبدونا .. ولكنا سنوقف طغيانهم .

وتحمس وهو قائمه وبدا امامها قويا واعجبت شجاعته وقوته .

واقترب منها واحتضنها .. ومسح على شعرها بحنان وحب .. وسألها :

ـ ستسافرين معى الى الاسكندرية ؟

ـ نعم والى كل مكان .

فقال هامسا

ـ فى ساعة الفجر .. سنفتح الباب بهدوء ونخرج معا .. فاعملى حسابك وكونى صاحية ..

ـ متى حبيبى أبدا .

وتركته .

وظل هو منيعطا يرسم خط سيره وتحركه .. والمكان الذى سيقيم فيه فى الاسكندرية بعيدا عن العيون ..

وكان معه حوالى ستة عشر جنيها سيقطع منها ثمن التذكرتين والباقى يصرفانه حتى يتدبر حالته .. ويشتغل هناك فى اى عمل .. والمدينة كبيرة ولن يجوع فيها .. وستبقى « روحية » فى البيت لن تشتغل فى أى مكان وسيتروحها ويصل على اسعادها ويرفع من كيانها وانسانيتها ويرد لها حقها المسلوب .

وفتح شوقى باب المسيون وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحا بقليل ولا يزال الظلام يخيم ودفع الفتاة امامه تحدر على السلم ونزل وراءها .

وفى مدخل العمارة لمح شيئا حمد له قلبه .. فقد رآهم يراطون على الباب واخذوا يقلبون بحوبحوداتهم النحاسية وفى ايديهم المناديق .. وكان يتقدم القوة اثنان من الكونستبلات الانجليز وبدا له جليا انهم قبضوا على رفيقه وانه هو الذى وشى به ودلهم على مكانه .. وكان ابداء أى حركة مقاومة منه معناها .. صرعه وصرع الفتاة المسكينة فظل ثابتا فى مكانه .. حتى طوقوه .

وعندما وصلوه فى « البوكس » ظلت الفتاة واقفة وحدها على عتبة الباب تصرخ ولم تكن قد فهمت شيئا .. ولكنها ظلت مع ذلك تصرخ بحرقةوكان صراخها يمزق نياط القلب .

وكان شوقى يسمع صراخ الفتاة والنور يتضاءل من خلال الكوة فى العربة المغلقة وظل يفكر فيها وفى صراخها وعذابها وهو فى العربة ومض فى رأسه خيط من النورأضاء له الطريق للهرب والعودةاليها ليخلصها منالعذاب ويخلص نفسه .. قبل ان يصلوا فى عنقه الحبل .